



التحليل النفسي للقول الشائع " الشيطان شاطر "

أ.د/ عادل كمال خضر
وكيل كلية الآداب - جامعة بنها
لشئون خدمة المجتمع وتنمية البيئة

كثيراً ما نسمع قول البعض بأن الشيطان شاطر ، فهل هناك معنى نفسي وراء هذه المقولة الشهيرة الدارجة على ألسنة الناس ؟؟ ..

بداية فإنه يتم قول هذه المقولة عندما يفكر الإنسان في معصية أو يقع في ارتكاب شيء محرم الإتيان به شرعاً . وبالتالي فالإنسان يريد أن ينفى عن نفسه القيام متممداً بالفعل الأثم الذي ارتكبه بنفسه ، بأن ينسبه إلى الشيطان مستخدماً في ذلك ميكانيزمات دفاعية وهي : الإنكار والإسقاط والإبدال والتبرير والتعميم والتضخيم .

ويبدو ميكانيزم الإنكار في رفض الإنسان أن يعترف بكونه المفكر أو المدبر أو الفاعل للمعصية ، فهو ينكر فعلته وينفي تعدد الإتيان بالفعل المحرم .

بينما يبدو ميكانيزم الإسقاط في أن الإنسان ينسب المعصية للشيطان - والتي عبر عنها بالشطارة - وإن كان هو أداته الفاعلة ، حيث يقذف الإنسان بالرغبة المحرمة إلى الخارج وينسبها للشيطان (العاصي لربه) فأصبحت الرغبة في ارتكاب فعل محرم هي رغبة الشيطان (وإن كان الإنسان هو الفاعل لها) .

ومن العجيب أن يتم التعبير بالشطارة كبديل للمعصية (ميكانيزم الإبدال) ، فالإنسان هنا ينفى التفكير في المعصية أو تعدد القيام بها ، لأنها تحتاج إلى مهارة أو شطارة في التخطيط وجرأة على فعل الشر ، وهذه الخصائص تتمثل على خير وجه لدى الشيطان لكونه رمز لكل شر ..

ومن ثم يكون الشيطان شاطر لكونه أوقع الإنسان في المعصية ، وكان لسان حال الإنسان العاصي يقول : ماذا أفعل وأنا ضعيف أمام غواية الشيطان (وهنا تم استخدام ميكانيزم التبرير) .. فالشيطان هو الذي يغوي الإنسان .. ولولا أن الشيطان شاطر ويستطيع غواية الإنسان وفتنته ، ما كان الإنسان فكرياً في معصية الله أو ارتكاب الأفعال المحرمة (ويتبدى هنا الشعور بالذنب) ..

والشعور بالذنب يجعل الإنسان يعيد حساباته على المستوى اللاشعوري ، فيبادر بإنكار نوازعه الشريرة ثم إسقاطها على الشيطان ، فيصبح الشيطان هو العاصي لربه وليس الإنسان . ويصبح الشيطان شاطر إذ استطاع غواية الإنسان (حيث نجح في أن يوسوس له) ليحقق رغبة محرمة ومحظورة على الإنسان (رغم محاولات الإنسان الصادقة والمستميتة لقمعها) ليوقعه في المعصية ليصبح الإنسان كالشيطان عاص لربه ، وهذا شأن الفجار إذ يحاولون إيقاع الأتقياء في المعصية (حتى يكون مفيش حد أحسن من حد .. ومن باب لا تعارني ولا أعيرك) .. وهنا يبدو ميكانيزم التعميم حيث الجميع خطاءون ، كما يتضح ميكانيزم التضخيم في جعل الشيطان شاطر على الدوام . إذ ينجح في أن يوسوس لكل البشر على السواء ، وبشكل مطلق ..

والإنسان إذ ينكر قيامه بذاته بفعل شيء محرم بنسبه إلى الشيطان وإسقاطه عليه ، فهو ضمناً ينفى رغبته الشريرة ويتملص من مسنوليته عن ارتكاب الجرم .. ومع ذلك فالرغبة الشريرة موجودة لدينا جميعاً ، ولا نستطيع أن ننكرها ، وهي موجودة في حالة كمون وهذه الرغبات لا تموت وتأهب دوماً للانقضاض والتحقق في حالة تهيؤ الظروف الخارجية .. وهذا يذكرنا بقول النبي صلى الله عليه وسلم : " إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم في العروق " .. كما أن القوى الخيرة ليست بمعزل عن قوى الشر بداخلنا ، فكليهما يتواجدان في

نفس واحدة ، وفي هذا يقول المولى عز وجل :
" وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا " (الشمس : ٧ - ٨) ، وعلى هذا فإن الشيطان فينا جميعاً ولكن من الأيسر أن نراه في الآخرين ،
" شياطين الإنس والجن " .. وبالتالي يكون الشيطان الذي بخارج ذاتنا هو العاصي لربه وهو رمز الشر والغواية ، بينما لا نرى الشيطان الكامن بداخلنا هو الراغب في ذلك و نلتمس له الأعذار .

غير أن الشيطان يدافع عن نفسه ، ويقذف بذنوب البشر في وجوههم باعتبارهم الراغبون فيها والقائمون بها ، والمسئولون عنها ، وأن عليهم أن يتحملوا نتاج أفعالهم ، حيث يذكر الله في قرآنه الكريم ما يقوله الشيطان إزاء ذنوب البشر وما يرتكبونه من معاص ، حيث يقول المولى عز وجل :
" وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ مَنْ سُلْطَانَ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَأَسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلْمُزُونِي وَلَوْ مَوْأَأَنْفُسِكُمْ " (إبراهيم : ٢٢) . وكان الشيطان بلسان حالنا يقول : " كل إناء بما فيه ينضح " .. وبالتالي فإن وسوسة الشيطان ما هي سوى أحد ميسرات الوقوع في المعصية والتي تأتي على هوى الإنسان لوجود هذه الرغبات المنحرفة لديه وتمنيه لو تحققت . وتكون الوسوسة آنذاك بمثابة الظلام الذي يبسر للحرامي السرقة ، وزحام الأتوبيسات الذي يبسر للمنحرف الاحتكاك الجنسي ، والمظاهرات التي تتيح للبعض التنفيس عن رغباتهم العدوانية بالتدمير والعدوان والسلب والنهب ..

وعلى هذا فإن القرآن والسنة يؤكدان على أن القوى الشريرة تكون بداخل الإنسان - وليست فقط بخارجة - وهي موجودة جنباً بجنب مع القوى الخيرة ، وهي كما القوى الخيرة في حالة ديناميكية ، تتصاعد وتهبط ، وليس على الإنسان إنكارها لكونها من طبيعة البشر ..

ويلاحظ أن الإنسان عندما ينكر ويسقط ويبدل ويعمم ويضخم ويبرر ارتكابه لفعل معصية ما ، فإنه لا ينفي التفكير فيها ، ذلك أن نفي الفعل لا يتضمن بالضرورة نفي الرغبة ، وبالتالي تعامل الرغبة معاملة الفعل .. فالإنسان وإن كان يرى أن الشيطان هو السبب أو الفاعل الحقيقي للمعصية ، إلا أنه يشعر بالذنب لكونها رغبته .. فالنية تساوي الفعل .. بل قد يأخذ بالنية ويترك الفعل .. كما في الحديث النبوي " إنما الأعمال بالنيات " ..

وكثير من الناس وخاصة الذين يعانون الاضطرابات النفسية إنما يشعرون بالذنب ويعاقبون أنفسهم بالمعاناة من الاضطرابات النفسية لمجرد وجود رغبات شريرة لديهم لم تصل بعد إلى مرتبة الفعل .. وعلى هذا فإن الرغبات الشريرة لدى الإنسان لها فعالية شديدة في توافق الإنسان أو اضطرابه ، فقد تلح الرغبة وتؤدي إلى أن يرتكب الإنسان الأفعال المنحرفة ، أو يتم كتبها ويحدث صراع نفسي يتزايد على أثره الشعور بالذنب لوجود هذه الرغبات المنافية للخلق والدين وعادات المجتمع - ذلك لأن الرغبة لدى الإنسان تساوي الفعل - فيزداد القلق نتيجة الصراع

النفسية ، ويتبع ذلك أن تزداد مشاعر الذنب فيتم التخلص من الصراع النفسي بسبب سطوته وعدم قدرة الإنسان على تحمله بأن يتم كبته ، ثم يتحول الصراع إلى أعراض نفسية (قلق ، وساوس ، اكتئاب ، مخاوف) . أو أن يتم تحويله إلى أعراض جسمية فتظهر الأعراض هستيريا التبدن ، والأمراض السيكوسوماتية ، من قبيل قرحة المعدة والقولون العصبي وغيرها ..

ومقولة " الشيطان شاطر " لها مدلول آخر ، حيث نجد أنها تعبر عن سياق الفهولة في الثقافة المصرية ، والتخلص من المسئولية وعدم الاعتراف بخطأ الذات ، فالشطارة هنا هي شطارة الإنسان العاصي الذي يحلوه الهروب من مواجهة الذات والاعتراف بالأخطاء إذ يلفقها بالآخرين ، ولعل الشيطان بما هو مكن الشرور هو بمثابة الآخر الذي نسقط عليه رغباتنا الشريرة ، وهو مهياً لذلك بغوايته وتعاليه وإصراره على معصية الخالق ، ويمكن أن نخلص من ذلك بأن الإنسان - بسياق الفهولة - هو الشاطر وليس الشيطان ، ذلك أن الشيطان خاب إذ جاهر بالمعصية وأصر عليها ، بينما الإنسان شاطر إذ يفعل المعصية ويتوب عنها ، بل الإنسان هو الشاطر إذ يرتكب المعصية ويقوم بتفسيقها للشيطان ..

خالص تحياتي

أ.د. عادل كمال خضر

E. mail : adelkhdr@fart.bu.edu.eg